المحاضرة التاسعة : الرسائل الأدبية

تمهيدٌ :

من المعلوم أن الرسائل الأدبية تعدُّ من بين أهم الأجناس الأدبية، وترجع أهميتها إلى أن كبار الكتاب وجهابذتهم المعروفين ♠ قد أولوها العناية الفنية الكبيرة، والتي « تجلت في رقة الألفاظ وتواؤمها في الجرس، وائتلافها في تراكيب لغوية رصينة، ضمت أقدارا موسيقية متناغمة، إلى جانب ما عرفوا به من قدرة عالية في تفتيق أكمام المعاني الجديدة، فضلا عن براعتهم الفائقة في الوصف وتحليل أدق المعاني والافكار، وتصوير أرقّ المشاعر الإنسانية، وتجسيد النوازع الوجدانية بكل عمق ووضوح، بما أُتيح لكثير من أولئك الكتاب البلغاء من ثقافة واسعة، وبلاغة ثاقبة نادرة، فضلا عن امتلاكهم ناصية اللغة والبيان » [1].

ويعدُّ القرنان الثالث والرابع من أغنى العصور وأكثرها استيعابا لكتاب الرسائل، ليس فقط على مستوى الأدباء، بل إن كبار رجالات الدولة من وزراء وولاة كانت لهم مشاركات طيبة في فن الرسائل، ويمكن أن نمثل في هذا الصدد بـ : أبو الفضل محمد بن العميد وزير ركن الدولة البويهي، والصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة البويهي ثم وزير أخيه فخر الدولة، والأمير أبو الفضل الميكالي، كما لا ننسى طبقات كتاب دواوين الرسائل في الدولة العباسية والدويلات (الممالك المستقلة) التي انشقت عنها بعد ذلك، نذكر منهم : أبو إسحاق الصابي، أبو القاسم الإسكافي، وهناك عدا هؤلاء طبقة الأدباء الكتاب الممتهنين صنعة الكتابة، وأشهرهم على الإطلاق : أبو بكر الخوارزمي، بديع الزمان الهمداني، أبو الفرج الببغاء، وفيما يلي نشير إلى مفهوم الرسالة الأدبية :

الرسائل الأدبية (الموضوعية) : هي « التي يكتبها البلغاء، يسجلون فيها خواطرهم، ويدوّنون آراءهم، فيما يعنُّ لهم من شؤون الاجتماع أو الفكر أو الأدب، أو يعملون على تأييد مذهب، وتفضيل فريق، أو يكتبونها في الترويح عن النفس، أو الفكاهة أو السخرية، ونحو ذلك » [2] كرسائل ابن المقفع ورسائل الجاحظ (البخلاء، التربيع والتدوير، الحاسد والمحسود، مناقب الترك...)، وهذا الضرب لم يقصد به الترسل، وإنما الكاتب يفضي بما يدور في خلده حول قضية ما، وسميت رسالة توسُّعا وإلا هي أكبر حجما من الرسائل المعروفة، وأقل حجما من الكتاب، فهي أشبه بالمقالات في عصرنا الحاضر.

نموذج من الرسائل الأدبية المشرقية :

كتب الجاحظ إلى أحد إخوانه في ذم الزمان ♥ : « بسم الله الرحمن الرحيم، حفظك الله حفظ من وفّقه للقناعة، واستعمله بالطاعة كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه، وأشكلت عليه أموره، واشتبه عليه حال دهره، ومخرج أمره، وقلّ عنده من يثق بوفائه، أو يحمد مغبّة إخائه، لاستحالة زماننا، وفساد أيامنا، ودولة أنذالنا، وقدما كان من قدّم الحياء على نفسه، وحكّم الصدق في قوله، وآثر الحقّ في أموره، ونبذ المشتبهات عليه من شئونه. تمت له السلامة، وفاز بوفور حظِّ العافية، وحمد مغبّة مكروه العاقبة، فنظرنا إذ حال عندنا حكمه، وتحولت دولته. فوجدنا الحياء متصلا بالحرمان، والصدق آفة على المال، والقصد في الطلب بترك استعمال القحة وإخلاق العرض من طريق التوكل دليلا، على سخافة الرأي؛ إذ صارت الحظوة الباسقة والنّعمة السابغة في لؤم النية، وتناول الرّزق من جهة محاشاة الوقار، وملابسة معرّة العار.

ثم نظرنا في تعقّب المتعقّب لقولنا، والكاشر لحجتنا، فأقمنا له علما واضحا، وشاهدا قائما، ومنارا بيّنا؛ إذ وجدنا من فيه السّفوليّة الواضحة، والمثالب الفاضحة، والكذب المبرّح، والخلف المصرّح، والجهالة المفرطة، والركاكة المستخفّة، وضعف اليقين والاستيثاب، وسرعة الغضب والخفة قد استكمل سروره، واعتدلت أموره، وفاز بالسهم الأغلب، والحظّ الأوفر، والقدر الرفيع، والجواب الطائع، والأمر النافذ، إن زلّ قيل حكم، وإن أخطأ قيل أصاب، وإن هذى في كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة في سنة مباركة.

فهذه حجتنا- أبقاك الله- على من زعم أن الجهل يخفض، وأن الحمق يضع، وأن النّوك يردي وأن الكذب يضرّ، وأن الخلف يزري.

♠- يعدُّ القرنان الثالث والرابع الهجريان موئل العديد من كبار كتَّاب الرسائل الأدبية؛ نذكر منهم : وأبو حيان التوحيدي، وأبو بكر الصولي، وأبو إسحاق الصابئ، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبو الفتح البستي، وبديع الزمان الخوارزمي...

[1] - غانم جواد رضا الحسن، الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجرة العراق والمشرق الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2011، ص05 .

[2] - فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، مرجع سبق ذكره، ص 306.

♥- هذه الرسالة يمكن اعتبارها رسالة إخوانية، وفي الآن نفسه رسالة أدبية؛ فإذا نظرنا إلى المرسل والمرسل إليه، وجدناه بين صديق وصديقه، ولكن إذا نظرنا إلى مضمونها وجدناها تعالج قضايا أخلاقية بين الأمس واليوم.

حقوق الملكية محفوظة لأستاذ المقياس الدكتور طالب زياني

ثم نظرنا في الوفاء والأمانة، والنّبل والبراعة وحسن المذهب، وكمال المروءة، وسعة الصدر، وقلة الغضب، وكرم الطبيعة، والفائق في سعة علمه، والحاكم على نفسه، والغالب لهواه؛ فوجدنا فلان بن فلان، ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقّه، ولا قام له بوظائف فرضه؛ ووجدنا فضائله القائمة له قاعدة به. فهذا دليل على أن الطّلاح أجدى من الصّلاح، وأن الفضل قد مضى زمانه، وعفت آثاره، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده؛ ووجدنا العقل يشقى به قرينه، كما أنّ الجهل والحمق يحظى به خدينه ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان، ومعربا عن الأيام، حيث يقول:

تحـــامق مـــع الحمقـــى إذا مـــا لقيـــتهم ... ولاقهـــم بالجهـــل فعـــل أخـــي الجهـــل
وخلّـــــط إذا لاقيـــــت يومـــــا مخلّطـــــا ... يخلّـــط فـــي قـــول صـــحيح وفـــي هـــزل
فـــإنّي رأيـــت المـــرء يشـــقى بعقلـــه ... كمـــا كـــان قبـــل اليـــوم يســـعد بالعقـــل

فبقيت أبقاك الله مثل من أصبح على أوفاز، ومن النّقلة على جهاز، لا تسوغ له نهمة ولا يطعم عينيه غمضة، في أهاويل يباكره مكروهها وتراوحه عقابيلها فلو أن الدعاء أجيب والتضرّع سمع، لكانت الهدّة العظمى، والرجفة الكبرى؛ فليت الذي يا أخي ما أستبطئه من النفخة، ومن فجأة الصيحة، قضي فحان، وأذن به فكان؛ فو الله ما عذّبت أمة برجفة ولا ريح ولا سخطة، عذاب عيني برؤية المغايظة المضنية، والأخبار المهلكة، كأن الزمان توكل بعذابي، أو انتصب لإيلامي؛ فما عيش من لا يسرّ بأخ شقيق، ولا خدن شفيق، ولا يصطبح في أول نهاره إلا برؤية من تكره رؤيته، ونغمة من تغمّه طلعته فبدّل الله لي- أي أخي- بالمسكن مسكنا، وبالربع ربعا! فقد طالت الغمة، وواطنت الكربة، وادلهمّت الظّلمة، وخمد السراج، وتباطأ الانفراج، السلام.» [1]

نموذج من الرسائل الأدبية الأندلسية والمغربية :

إنَّ المطالع لما كتبه الأندلسيون من رسائل أدبية يجد أن القرن الخامس الهجري وما بعده يعدُّ موئل كثير من النماذج الراقية في سماء الأدب العربي، التي تأثرت بفن الرسالة الأدبية المشرقية، يقول فايز عبد النبي فلاح القيسي : « لقد تأثر الكتاب الأندلسيون في هذا القرن بتلك الرسائل الرائعة التي ابتدعها عدد من كتّاب المشارقة من أمثال : سهل بن هارون، والجاحظ وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم، والتي انتقلت فيما بعد إلى الأندلس، واستقوا من هذه الرسائل، ولم يقفوا عند هذا الحد فحسب، بل طوروها، وابتكروا جوانب جديدة سبقوا المشارقة إليها، ووسعوا بها ميادين أدب الرسائل » [2]

ولقد تكاثرت الرسائل الأدبية وتشعبت موضوعاتها، بحيث إننا لانستطيع أن نحيط بها لكثرتها، إلا أننا نمثل بالنماذج الأشهر التي طالما

دندن حولها المؤرخون والدارسون، ومن هذه الرسائل، رسالة : " التوابع والزوابع♣ " لابن شُهَيْدٍ الأندلسي ♥ ، التي تعدُّ من أبرز القصص أو الرحلات الخيالية (العجائبية) ذات الطابع النقدي، التي يحكي فيها ابن شهيد حيثيات رحلته إلى عالم الجن برفقة تابع له، حيث التقى بتوابع الكتاب والشعراء، فساجلهم وناقشهم، وعرض عليهم كثيرا من الآراء الأدبية واللغوية، فأجازوه فيها، وانتزع إعجابهم، وقد ارتأى أن يكون اللقاء بالشعراء قبل الخطباء(الكتاب) يقول في مقدمة هذه الرسالة : « تذاكرتُ يوماً مع زُهير بن نُميرٍ أخبار الخُطباء والشعُّراء، وما كان يألفُهُم من توابع والزوابع، وقلتُ: هل حيلةٌ في لقاء من اتفق منهم؟ قال: حتى أستأذن شيخنا وطار عني ثم انصرف كلمحٍ بالبَصَر، وقد أُذن له، فقال: حُلَّ على متن الجَوادِ. فصرنا عليه؛ وسار بنا كالطائر يجتابُ الجوَّ فالجوَّ، ويقطعُ الدَّوَّ

---

[1] - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج02، مرجع سبق ذكره، ص189- 191.

[2] - فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، مرجع سبق ذكره، ص 147.

♣- هذه الرسالة أثارت جملة من الإشكالات، بداية في أصل جنسها الأدبي؛ هل هي قصة أو مقامة أم هي رسالة أدبية، ولعلَّ الرأي الأخير هو الأقرب للصواب، خاصة وأنها تنحو منحى رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، هذا التشابه الذي بدروه فتح الباب على نقاش شائك حول التأثير والتأثر بين المشرق والمغرب، يقول علي بن محمد في هذا الصدد : « ومن القضايا التي تثار عند ذكر هذه الرسالة، قضية صلتها برسالة الغفران لأبي العلاء المعري، فإن طبيعة بعض الذين يكتبون عن الأدب العربي في الأندلس تدفعهم إلى أن ينظروا إلى كل أثر فيه على أنه صورة عن أصل يوجد في بلاد المشرق، وصدى يحكي الصوت الذي ينبعث فيها ... » علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله، ج02، مرجع سبق ذكره، ص 560.

♥- يعد ابن شهيد من أعلام الكتابة الأندلسية، حتى إنَّ ابن بسام قال في حقه : «وكان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها، وينبوع آياتها، ومادة حياتها، وحقيقة ذاتها، وابن ساستها وأساتها، ومعنى أسمائها ومسمياتها، نادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار؛ إن هزل فسجع الحمام، أو جد فزئير الأسد الضرغام؛ نظم كما اتسق الدر على النحور، ونثر كما خلط المسك بالكافور، إلى نوادر كأطراف القنا الأملود، تشق القلوب قبل الجلود، وجواب يجري مجرى النفس، ويسبق رجع الطرف المختلس » أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 191، 192.

فالدَّوَّ، حتى التمحتُ أرضاً لا كأرضنا، وشارفتُ جواً لا كجوّنا، متفرع الشجر، عطر الزَّهر؛ فقال لي: حللتَ أرض الجن أبا عامر، فبمن تُريدُ أن نبدأ؟ قلتُ: الخطباء أولى بالتقديم، لكني إلى الشعراء أشواق ... » [1]

ويقول في فصل " **الأوزة الأديبة** " : « وكانت في البركة بقُربنا إوزَّةٌ بيضاء شهلاء، في مثل جُثمانِ النّعامة، كأنما ذُرَّ عليها الكافور، أو لبست غلالةً من دمقس الحرير، لم أر أخفَّ من رأسها حركة، ولا أحسن للماء في ظهرها صباً، تثني سالفتها، وتكسر حدقتها، وتُلولبُ قمحدوتها، فترى الحُسن مستعاراً منها، والشكل مأخوذاً عنها، فصاحت بالبغلة: لقد حكمتُهم بالهور، ورضيتم من حاكمكم بغير الرّضا.

فقلتُ لزهير: ما شأنها؟ قال: هي تابعةُ شيخٍ من مشيختكم، تسمى العاقلة، وتُكنى أمَّ خفيف، وهي ذات حظٍ من الأدب، فاستعدَّ لها. فقلتُ: أيتها الإوزةُ الجميلة، العريضةُ الطويلة، أيحسنُ بجمال حدفتيك، واعتدال منكبيك، واستقامة جناحيك، وطول جيدك، وصغر رأسك، مقابلةُ الضَّيف بمثل هذا الكلام، وتلقي الطارئ الغريب بشبه هذا المقال؟ وأنا الذي همت بالإوزة صبابةً، واحتملت في الكلف بها عضَّ كل مقالة؛ وأنا الذي استرجعتها إلى الوطن المألوف، وحببتُها إلى كل غطريف، فاتخذتها السادة بأرضنا واستهلك عليها الظُّرفاء منا، ورضيت بدلاً من العصافير، ومُتكلمّات الزرازير، ونُسيت لذَّةُ الحمام، ونقارُ الدُّيوك، ونطاحُ الكباش.» [2]

ومما يستحضر في هذا المقام فن الرسائل الفكاهية والتهكمية، التي تندرج ضمن باب الرسائل الأدبية كذلك، والملاحظ أن أدباء الأندلس قد نسجوا على منوال الكتاب المشارقة الكبار، :كأمثال سهل بن هارون والجاحظ والبديع، ولعلَّ أبرز نموذج نمثل به للأدب الأندلسي هو : الرسالة الهزلية لابن زيدون ♥؛ التي جعلها على لسان محبوبته ولادة بنت المستكفي موجها خطابه لعدوه ومنافسه على حبها، الوزير : ابن عبدوس، يقول فيها مقدمتها التي جعلها للسخرية منه، وصفه بأقبح المساوئ والنعوت، وأنه يتشبع بما لم يعطه من صفات الكمال والجمال : « أما بعد .. أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش إلى الشهاب، فإن العجب أكذبُ، ومعرفة المرء نفسه أصوبُ ... » [3]

إلى أن يقول : « ولا شك في أنها قَلَتْكَ إذ لم تضنَّ بك، وملَّتْكَ إذ لم تَغَرْ عليك، فإنها أعذرت في السِّفارة لك، وما قصرت فى النيابة عنك؛ زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه؛ قاطعة أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال؛ حتى خيَّلَت أن يوسف عليه السلام حَاسَنَكَ، فغضضت منه، وأن امرأة العزيز رأتك فَسَلَتْ عنه؛ وأن قارون أصاب بعض ما كنزت، والنِّطْفَ عثر على فضل، ما ركزت ؛ وكسرى حمل غَاشِيَتَكَ ، وقيصر رعى ماشيتك؛ والإسكندر قتل دارا في طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك؛ والضحاك استدعى مسالمتك، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك؛ وشيرين نافست بوران فيك؛ وبلقيس غايرت الزباء عليك؛ وأنَّ مالك بن نويرة إنما ردف لك؛ وعروة بن جعفر إنما رحل إليك؛ وكليب بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتك؛ وجسَّاسا إنما قتله بأنفتك؛ ومهلهلا إنما طلب ثأره بهمتك؛ والسموءل إنما وفى عن عهدك، والأحنف إنما احتبى فى بردك؛ وحاتما إنما جاد بوفرك، ولقى الأضياف ببشرك؛ وزيد بن مهلهل إنما ركب بفخذيك، والسليك بن السلكة إنما عدا على رجليك، وعامر بن مالك إنما لاعب الأسنة بيديك؛ وقيس بن زهير إنما استعان بدهائك، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك؛ وسحبان إنما تكلم بلسانك، وعمر بن الأهتم إنما سَحَرَ ببيانك؛ وأن الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك، والحمالات في دماء عبس وذبيان أسندت إلى كفالتك؛ وأن احتيال هرم لعامر وعلقمة حتى رضيا كان عن إشارتِك؛ وجوابه لعُمرَ - وقد سأله عن أيهما كان ينفر - وقع عن إرادتك ... » [4]

خصائص الرسائل الأدبية :

من أهم خصائص الرسائل الأدبية :

01/ الميل إلى الإطناب المستحسن، الذي لا تحسُّ مع مللا، حيث يسير بالقارئ في مسالك كثيرة، مستقصيا الكلام عن الفكرة أو الموضوع، جامعا بين الجد والهزل، متدرجا بين جزئيات البناء الفني المعروفة (الاستهلال والعرض والخاتمة وحسن الانتقال أو التخلص).

---

[1] - أبو عامر أحمد بن شهيد الأندلسي، التوابع والزوابع؛ تح: بطرس البستاني، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط02، 1996، ص 87.

[2] - المصدر نفسه، ص 145، 146.

♥- اعتنى بها الدارسون لنفاستها شرحا وتعليقا، ولعلَّ أشهر ما وصلنا في شرحها هو كتاب : **"سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون "** لابن نُباتة المصري ت768 ه.

[3] - أبو الوليد أحمد بن زيدون، ديوان ابن زيدون ورسائله، تح: محمد سعيد الكيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ط02، 1956، ص235.

[4] - المصدر نفسه، ص235 – 238.

02/ الاشتغال على حسن اختيار الألفاظ، وتنسيق الجمل وانسجام أسلوبه وترابط معانيه، مع فكرٍ سليمٍ، ومنطقٍ بديعٍ.
03/ بلغت كتابة الرسائل الأدبية شأوا بعيدا، دانت وضارعت في ذلك الشعر، بل إنها استعارت منه كثيرا من خصائصه الإيقاعية والموسيقية، خاصة : السجع والازدواج والتوازن، فضلا عن الزخارف البديعية الأخرى.
04/ عناية بعض الكتاب بالمعاني الجديدة المبتكرة والدلالات المولدة، وخاصة المجردة منها، التي تحتاج قارئا خاصا كي يفهمها ويتوصل إلى مقاصد أصحابها.
ومن حيث مضامين الرسائل فيظهر في :
01/ استلهام كثير من مصادر الثقافة العربية المعروفة آنذاك، وعلى رأسها القرآن الكريم والسنة المطهرة والشعر العربي والأمثال والحكم والقصص والتاريخ، بل وحتى المعطى الأجنبي (اليونان والفرس) بحيث نجد رجع صدى كل هذا أو بعضه في الرسائل الأدبية في المشرق والمغرب على السواء.
02/ المبالغة في الوصف المعنوي والحسي، بحيث يتم تصوير كل تقع عليه أعينهم وأخيلتهم.
03/نزوع كثير من كتاب الرسائل إلى الفكاهة والسخرية والتهكم والتندر، وهذا يرجع إلى بواعث ذاتية لبعض الكتاب، وأيضا لعوامل موضوعية اقتضتها البيئات المختلفة التي تجنح نحو التفكه والمرح والانبساط.

حقوق تأليف هذه المحاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زيناي